الفصل التاسع

من بواعث الإخلاص

هناك أُمور تعين المسلم السالك طريق الله على إخلاص النية والعمل لله تعالى . إنها بواعث نفسية ، ودوافع روحية ، وعوامل فكرية ، وجوانب عملية ، إذا توافرت وتوطَّدت فهى جديرة أن تؤثر فى عقل السالك وضميره ، وتدفعه إلى الأمام فى طريق المخلصين ، وتساعده على تحرير نفسه ، وتنقية دواعيه من الشوائب الذاتية والدنيوية .

● **العلم الراسخ :**

١ - أول هذه المعينات أو البواعث : أن يعلم علماً يستيقنه فى أعماقه بأهمية الإخلاص وضرورته الدينية ، وثمراته فى الدنيا والآخرة ، وأن الله تعالى لا يقبل عملاً إلا بإخلاص ، مهما تكن صورته ، وأنه تعالى مطلع على ما فى قلبه ، فهو يعلم السر وأخفى ، ولا تخفى عليه خافية . كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ (١) .

ولا يتم ذلك إلا بأن يقرأ ويكرر ما جاء فى القرآن والسُّنَّة من ذلك ، وما جاء فى كلام الصالحين ، ويستيقن من خطر الرياء ، وحب الجاه والشهرة ، وحب الدنيا . . وتأكد هذه المعارف فى النفس ورسوخها يعينها على أن تتخلص من أهوائها الذاتية ، ومن شهواتها الدنيوية .

فإن مقام « الإخلاص » كغيره من المقامات أو الأخلاق الربَّانية مركَّب مكون من ثلاثة عناصر :

١ - عنصر معرفى إدراكى .

---

(١) إبراهيم : ٣٨

٢ - وعنصر وجدانى انفعالى .

٣ - وعنصر عملى إرادى .

وهو ما يعبِّر عنه الإمام الغزالى فى « الإحياء » عادة بأنه معجون مركَّب من : علم ، وحال ، وعمل .

ولا ريب أن أول هذه العناصر هو العلم والمعرفة . فالعلم هو الذى يسبق فى الوجود ، ولا يمكن أن يتوجه الإنسان إلى شىء لا يدركه ولا يعلمه بوجه من الوجوه ، إنما يأتى التوجه الوجدانى - المحبة والرغبة ، أو البغض والرهبة - نتيجة للمعرفة والإدراك . وكلما قويت المعرفة ، ورسخ العلم ، حتى وصل إلى درجة اليقين ، كان تأثيره فى الوجدان أقوى وأعمق ، فالمرء يعرف أولاً ، فيتأثر ثانياً ، فيتحرك ثالثاً . وهذا ما أشار إليه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾[1] . كان العطف هنا بحرف « الفاء » للدلالة على الترتيب والتعقيب . فهؤلاء الذين أُوتوا العلم يعلمون أن القرآن هو الحق من عند الله ، فيترتب على هذا العلم الإيمان به ، ويترتب على هذا الإيمان : حركة قلوبهم بالإخبات والخشوع لله تعالى .

* *

● صحبة أهل الإخلاص :

٢ - ومما يعين على الإخلاص : صحبة أهل الإخلاص ومعايشتهم ، والحياة فى رحابهم ، ليتأسى بهم ، ويأخذ عنهم ، ويتخلَّق بأخلاقهم ، فإن التأسى بهم صلاح ، والتشبه بهم فلاح .

وقد صوَّر النبى ﷺ أثر الصحبة والمجالسة فى الصاحب والمجالس تصويراً بليغاً معبِّراً ، فقال : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء ، كمثل حامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك (أى يعطيك) وإما

---

(١) الحج : ٥٤

أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » (١) .

ومن رحمة الله بالناس : أن الأرض لا تخلو من هؤلاء ، فليجتهد سالك طريق الآخرة فى البحث عنهم ، والاقتباس منهم ، فهم كما جاء فى الصحيح : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (٢) .

لقد نوَّه الحكماء والشعراء والأدباء بالصحبة والأصحاب . وقال فى ذلك الشاعر :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن قرينه فكل قـرين بالمقارن يقتـــدى

لا ريب أن من أعظم البواعث على الإخلاص : صحبة المخلصين ، الذين نذروا حياتهم لله ، وباعوا أنفسهم وأموالهم لله ، هؤلاء الذين جالسونك فى الله ، ويحبونك فى الله ، وتحبهم فى الله . . ليسوا من الذين يقبلون عليك ، ويلتفون بك ، إذا أقبلت عليك الدنيا ، ويعرضون عنك إذا أدبرت عنك الدنيا ، فهم ذباب طمع ، وفَراش نار .

هؤلاء الذين أمر الله رسوله الكريم أن يصبر نفسه معهم ، ولا تعدو عيناه عنهم ، وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ (٣) .

إن الذى يصحب هؤلاء يتأثر بهم ، ويأخذ عنهم ، ويقتبس منهم فضائلهم ، بالأُسوة الحسنة ، وبالحال المؤثرة ، ولهذا قال السَلَف : « حال رجل فى ألف رجل ، أبلغ من مقال ألف رجل فى رجل » . يعنون بحاله : سلوكه وخُلُقه وعمله .

وقد جاء عن سلمان رضى الله عنه : « مثل الأخوين المؤمنين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً » .

---

(١) متفق عليه عن ابى موسى ، كما فى « المنتقى من الترغيب والترهيب » : حديث (١٨٧٢) .

(٢) من حديث طويل رواه البخارى (١/١٧٧ ، ١٧٩) ومسلم برقم (٢٦٨٩) عن أبى هريرة .

(٣) الكهف : ٢٨

المهم ألا تعيش وحدك ، ولا تخلد إلى صومعة العُزلة ، وحياة الرهبنة ، فلا رهبانية فى الإسلام ، والمؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم ، والخير والرحمة مع الجماعة ، والهلاك والضياع مع الانفراد والشذوذ عن الجماعة . ويد الله مع الجماعة ، ومَن شَذَّ سَذَّ فى النار ، والشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، فهى مع القطيع محمية به ، محروسة ببركة التجمع ، وهى إذا شردت عنه التهمها الذئب منفردة ، والشيطان هو ذئب الإنسان . والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، والجماعة قوة على الطاعة ، وعون على الحماية من المعصية .

فتعرَّف على إخوانك فى الله ، وضع يدك فى أيديهم ، وتعلَّم منهم وعلِّمهم ، وتعاون معهم على البرِّ والتقوى ، وتواص معهم بالحق وبالصبر ، تعرَّف عليهم فى المساجد ، وفى مجالس الخير ، وفى حلقات العلم ، وفى ميادين الدعوة ، ولا تخلو الأرض - إن شاء الله - منهم . قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) ، فأوصِ غيرك بالحق ، وتقبَّل الوصية من غيرك به ، وليس هناك مؤمن أصغر من أن يوصى ، ولا أكبر من أن يوصِى . وهذا معنى التواصى ، الذى يقتضى التفاعل من الجانبين ، وقد قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٣) .

وفى الحديث : « المؤمن مرآة المؤمن » .

* *

● قرأة سير المخلصين :

٣ - ومما يعين على الإخلاص ، ويبعث عليه : قراءة سير المخلصين ، والتعرف على حياتهم ، للتأثر بهم ، والاهتداء بهداهم ، فإذا لم يستطع السالك إلى الله أن يجد المخلصين الأحياء ليصاحبهم ، فلا أقل من أن يصحب المخلصين الأموات ، فإن الأخلاق كالأفكار لا تموت بموت أصحابها .

---

(١) الأعراف : ١٨١ (٢) سورة العصر كاملة (٣) التوبة : ٧١

فهذه القراءة لون من الصُحبة والمعايشة ، ولكنها صُحبة فكرية ونفسية ، ومعايشة روحية وإيمانية .

ومن فضل الله تبارك وتعالى : أن فى تراثنا كثيراً من « النماذج المخلصة » التى لا يملك مَن قرأها إلا أن يتأثر بها .

من هذه النماذج نموذج الثلاثة « أصحاب الغار » الذين قصَّ علينا قصتهم رسول الله ﷺ . حين أطبقت عليهم الصخرة ، فلم ينجهم منها إلا أعمال صالحة كانوا قدَّموها خالصة لوجه الله تعالى ، فتوسَّلوا إلى الله بها ، وقال كل واحد منهم : « اللَّهُمَّ إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فَفَرِّج عنا ما نحن فيه » . ففرَّج الله عنهم ، وأخرجهم من ورطتهم بسبب إخلاصهم . وقد مرَّ بنا هذا النموذج مفصَّلاً فليُرجع إليه (١) .

ومن هذه النماذج ما جاء فى الحديث الذى رواه النسائى فى سننه عن شَدَّاد ابن الهاد رضى الله عنه : أن رجلاً من الأعراب جاءَ إلى النبى ﷺ فآمن به واتَّبعه ، ثم قال : أهاجر معك ، فأوصى به النبى ﷺ بعضَ أصحابه .

فلما كانت غزاته غنم النبى ﷺ فقسم وقَسَم له ، فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يَرْعَى ظهرهم ، فلما جاءَ دفعوه إليه ؛ فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك النبى ﷺ ، فأخذه ، فجاءَ به إلى النبى ﷺ فقال : ما هذا ؟ قال : « قَسَمْتُهُ لَكَ » .

قال : ما على هذا اتَّبَعْتُكَ ، ولكن اتبعتك على أن أُرمى إلى هاهنا - وأشار إلى حَلْقه - بسهم ، فأموت ، فأدخل الجنة ؛ فقال : « إنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ » .

فلبثوا قليلاً : ثم نهضوا إلى قتال العدو ، فأُتِىَ به إلى النبى ﷺ يُحْمَل ، قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبى ﷺ : « أَهُوَ هُوَ » ؟ قالوا : نعم ، قال : « صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ » .

ثم كَفَّنه النبى ﷺ فى جُبَّته التى عليه ، ثم قدَّمه فصلَّى عليه ، وكان مما ظهر من صلاته : « اللَّهُمَّ هذَا عَبْدُكَ ، خَرَجَ مُهَاجِراً فِى سَبِيلِكَ ، فَقُتِلَ شَهِيداً ، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ » .

---

(١) مرَّ بنا فى ص ١٠٩

ومن ذلك : ما حفل به التاريخ الإسلامى من روائع البطولات ، ووقائع المخلصين الذين نذروا أنفسهم لله ، وجعلوا حياتهم كلها لله ، وجهادهم كله لله ، فلم يشركوا به أحداً .

من هؤلاء : ما كتبه الإمام حسن البنا رضى الله عنه فى أحد أحاديث الجمعة فى جريدة « الإخوان المسلمون » اليومية عن « صاحب النقب » ؛ وتتلخص قصته فى أن المسلمين فى إحدى معاركهم وقفوا أمام حصن منيع من حصون عدوهم ، وطال حصارهم لهذا الحصن ، ثم فكر أحد الجنود فى فتح ثغرة أو نقب فى جدار الحصن ، يتسلل منه ، ويفتح الباب للمقاتلين المسلمين .

فعل ذلك الجندى المسلم ، ونقب النقب وحده فى هدوء وصمت ، مما مكن المسلمين من تحقيق النصر المنشود بأقل التضحيات .

المهم أن قائد المعركة بحث عن « صاحب النقب » الذى كان وراء هذا النصر ، ولم يتقدم أحد يقول : أنا هو . فخطب فى جنوده قائلاً : أقسمت باللهِ على مَن نقب النقب أو عرف صاحبه إلا دلَّنى عليه .

وبينما القائد فى خيمته دخل عليه رجل ، وقال له : هل تريد أن تعرف صاحب النقب ؟ قال : نعم واللهِ .

قال : أنا أدلك عليه ، ولكن له شروطاً يطلبها . قال : له كل ما يشترط ، فما شروطه رحمك الله ؟ . قال : ألا تسأله عن اسمه ، ولا تعلن عنه فى الناس أو إلى الخليفة ، ولا تكافئه على عمله . قال : له ذلك ، فأين هو ؟ قال : أنا هو ! فقام القائد وعانقه . فطالبه بالوفاء بالشرط ، فلم يملك القائد إلا الاستجابة ، وذاب هذا الجندى المجهول فى المحيط الكبير ، فلم يره أحد بعد ذلك .

فكان القائد يدعو الله أن يحشره مع صاحب النقب ، وأن ينصر دينه به وبأمثاله من أهل الإيمان والإخلاص : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

* *

● **المجاهدة للنفس :**

٤ - ومن المعينات على الإخلاص : المجاهدة . ونعنى بالمجاهدة توجيه الإرادة إلى جهاد النفس الأمَّارة بالسوء ، ومقاومة رغباتها الذاتية والدنيوية ، حتى تخلص لله تعالى .

ولا يستطيع أحد أن يسلك طريق القوم ، وهو مستسلم لأهواء نفسه ، وحبها للجاه والظهور ، وطموحها إلى الشُهْرة والثناء ، أو للثروة والمال ، أو لغير ذلك من شهوات النفس ، وزخارف الدنيا . وإنما يسلك الطريق مَن اصطحب معه إرادة قوية ، وتصميماً على المجاهدة ، و« الإرادة » هى الأساس ، و« المجاهدة » هى المحور .

وإن أخطر شىء على سالك الطريق هو اليأس من الانتصار فى هذه المعركة ، وإلقاء السلاح اعترافاً بالهزيمة النفسية ، أو إقراراً بالعجز أو باستحال الوصول .

وقد كان بعض الحكماء يكره من أصحابه وتلاميذه كلمات ثلاثاً ؛ هى : لا أقدر ، لا أعرف ، مستحيل .

فأما مَنْ قال له : لا أقدر ، فيقول له : حاول .

وأما مَنْ قال له : لا أعرف ، فيقول له : تعلَّم .

وأما مَنْ قال له : مستحيل ، فيقول له : جرب .

ولا شك أن فى مجاهدة النفس صعوبة ومعاناة ومشقة ، يجدها مَن يريد طريق الآخرة ، وخصوصاً فى أول الأمر ، ولكن بالاجتهاد والمحاولة والتكرار والصبر ، والاستعانة بالله تعالى ، يسهل الصعب ، ويتيسر العسير .

---

(١) الأنفال : ٦٢

وهذه سُنَّة الله فى خلقه : أنَّ مَنْ جَدَّ وجد ، ومَنْ زرع حصد ، ومَنْ سار على الدرب وصل ، وهذا وعد الله سبحانه لمن جاهد فيه : أن يهديه سبيله وينير له طريقه ، كما قال تعالى : ﴿ والَّذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

وهذه الآية مكية ، أى أنها نزلت قبل أن يشرع الجهاد بالمعنى العسكرى ، فهى أحق بأن تكون فى ألوان الجهاد الأخرى ، وفى مقدمتها : جهاد النفس ، وهو أول مراتب الجهاد وأولاها .

وفى الحديث الشريف : « المجاهد مَنْ جاهد نفسه لله » ، أو قال : « فى الله عَزَّ وجَلَّ » (٢) .

* *

● **الدعاء والاستعانة بالله :**

٥ - ومما يقوِّى ذلك كله ويشد عضد سالك الطريق إلى الله : أن يستعين بالله تبارك وتعالى على أمره كله ، فمنه وحده العون ، وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله . وقد علَّمنا الله تعالى أن نقول فى صلواتنا أبداً : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٣) . فهذه هى حقيقة التوحيد : إفراد الله عَزَّ وجَلَّ بالعبادة والاستعانة ، فلا عبادة إلا له ، ولا استعانة إلا به تبارك وتعالى ، وفى الصحيح : « استعن بالله ولا تعجز » (٤) .

والدعاء سلاح المؤمن ، وسبب من الأسباب الروحية التى شرعها الله للإنسان ليحقق مطالبه ، ويسد حاجاته .

وعندما تعجز وسائل الإنسان المادية ، أو تضعف قدرته ، أو تهن إرادته ، فليس أمامه إلا باب الله الكريم ، يطرقه بالدعاء ، ويسأله من فضله ، وهو أهل الإجابة ، وقد مرَّ بنا الحديث الذى علَّمه لنا رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » .

* * *

---

(١) العنكبوت : ٦٩

(٢) رواه عن فضالة بن عبيد : أحمد فى « المسند » : ٦/ ٢٠ ، ٢٢ ، والترمذى فى « الجهاد » ، وقال : حسن صحيح .

(٣) الفاتحة : ٥

(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة .